المؤسّسات وتجديد الخطاب الدّيني

محمد إسماعيل الحشّاش
باحث في التاريخ الحديث والمعاصر

جميع الحقوق محفوظة © 2017
www.hafryat.com

All rights reserved © 2017
www.hafryat.com

مقدمة

بدأت الدعوات، في الفترة الأخيرة، إلى تجديد الخطاب الديني، لكن دون دراسة جدية هذه الدعوات، والداعين إليها، وما تستتبعه من سياسات وتغييرات، تعدّ أعلى من مستوى الخطاب الديني الحالي، وترتبط بالحقوق والحريات والعلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ويمكن رصد محطتين أساسيتين لهذه الدعوات:

بدأت الأولى عقب أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، وما أعقبها من حرب ضدّ الفكر المتطرف، ثم جاءت المرحلة الثانية إبان موجة الثورات العربية، التي تحولت فيما بعد إلى حرب بين النظم السياسية والحركات الإسلامية المتطرفة.

وفي مصر، مع تصاعد المدّ الديني، تزامناً مع الصعود السياسي للتيارات الإسلامية، ووصولاً إلى المواجهات الحادة والعنيفة مع جماعة الإخوان المسلمين، عقب أحداث ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣، انطلقت دعوات تجديد الخطاب الديني، كخطاب أزمة واكب عملية تسييس المؤسسات الدينية، واستخدامها كأداة من أدوات الصراع السياسي.

وكان الأزهر، كأهم وأقدم المؤسسات الدينية، هو المؤسسة التي حاولت احتكار مفهوم التجديد، غير أنّ اختيار الأزهر تحديداً طرح سؤال إشكالي هو: كيف يدعو الأزهر إلى تجديد الخطاب الديني بينما منابره التعليمية والخطابية تعجّ بالدعوات ضدّ النصارى واليهود ومن والاهم؟ وهو ما يثير تساؤلاً آخر حول مدى إيمان هذه المؤسسة بقيم المواطنة والمساواة ومكافحة التمييز؟ أضف إلى ذلك؛ أنّ عدداً من الملتحقين بالتنظيمات الجهادية من خريجي مؤسسة الأزهر.

مفهوم التجديد

الجديد في اللغة يشمل معان عدة منها:

- ضدّ القديم البالي: فيقال جدّ يجد فهو جديد، وتجدّد الشيء أي صار جديداً، وقد سمّي الليل والنهار الجديدان، لأنّهما لا يبليان أبداً[1].
- الجديد: ما لا عهد لك به.

والتجديد في الاصطلاح الحديث: هو نزعة تأخذ بأساليب جديدة في نواحي الحياة الفكرية والعلمية، ولما كان التجديد مضافاً إلى الفكر، كان لا بدّ من بيان معنى الفكر، وهو إعمال العقل في العلوم

للوصول إلى معرفة المجهول[٢].

ولا يخلو الفكر من جهد مبذول؛ لأنّ الفكر هو إعمال العقل، وإعماله يحتاج إلى جهد وطاقة، فإذا بلغ الجهد المبذول غايته بأن بذل الإنسان ما في وسعه للوصول إلى طرح معين اقترن بالفكر الاجتهادي، أصبح الاجتهاد من مقومات الفكر وأركانه الأساسية.

وهناك من يرى أنّ التجديد هو مقاربة للأفكار، ولا تولد تلك الأفكار من العدم واللاشيء؛ بل هي سياقات يتحكم فيها الزمان والمكان وتحكمها الثوابت في العقيدة والأحكام، وهو ما نراه أصيلاً في الرسالة التي تهيب بالإنسان أن ينفتح على الآراء والأفكار المختلفة ليكتشف الأفضل منها. ويمكن القول: إنّ التجديد روح وحالة داخلية، قبل أن يكون ظروفا وإمكانيات خارجية، فإذا ما سرت هذه الروح في جسد أمة، بعثت فيها الحركة ودفعتها نحو التقدم، والانطلاق نحو فضاءات لا حدود لها[٣].

أما التجديد عند السلفية؛ فهو إحياء وإظهار لما تمّت دراسته من علم الكتاب والسنة، ونشر العلم ونصر أهله، وقمع البدعة وأهلها، ونقل العلم، كما تفهم من جيل إلى جيل، والعودة بالمسلمين إلى ما كانوا عليه على وفق منهج السلف الصالح، وهو ما يتفق مع التجديد السُنّيُ الكلاسيكي القائم على الكتاب والسنة، وفق ضوابط ومناهج السلف، وما دون ذلك تسميه التجديد البدعي، لتصف به محاولات بعض الكُتَاب والمفكرين الإسلاميين، وبعض رموز الحركات الإسلامية الحديثة، الذين نحوا بالتجديد منحنى آخر لم يألفه السلف، تحت تأثير العصرانية والتقدمية وأفكار اليسار والتوجه الحضاري[٤].

وعليه، يعدّ مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تنازعتها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة، وقد انعكس هذا التنازع على المفهوم ذاته، فتجديد الدين هو في حقيقته تجديد وإحياء وإصلاح العلاقة بين المسلمين والدين، والتفاعل مع أصوله، ويرتبط مفهوم التجديد بشبكة من المفاهيم النظرية المتعلقة بالتأصيل النظري للمفهوم، والمفاهيم الحركية المتعلقة بالممارسة الفعلية لعملية التجديد، فعلى سبيل المثال: يتشابك مفهوم التجديد بالتغريب الذي يعبّر عن عملية النقل الفكري من الغرب، وهو ما قد يحدث تحت تأثير دعوى التجديد[٥].

والتجديد لا ينطلق من فراغ، إنّما يعتمد على فهم الواقع من أجل الكشف عمّا فيه من سلبيات وإشكاليات، للانطلاق من ذلك الفهم إلى تصحيح الأوضاع، وتقديم حلول واقعية لتلك الأسئلة الإشكالية، بنوع من الإبداع الذي يضيف الجديد إلى فهم الناس للدين، بعيداً عن الصنمية والجمود، فمتغيرات الحداثة الهائلة يجب أن تنبه للبحث عن طوق نجاة.

اتجاهات التجديد

يرى الباحث أنّ تجديد الخطاب الديني يكتسب فعاليته عبر اتجاهين رئيسين، يجب أن يسير فيهما بشكل متوازٍ، هما:

- ألّا يكون الخطاب شمولياً خالياً من تعدّد الآراء ووجهات النظر؛ بل المطلوب أن يكون خطاباً خالياً من الصراع، ونفي الآخر، وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة.
- الانفتاح على الآخر بهدف استكشاف عناصر التقاء، يمكن توظيفها في تشكيل إطار ثقافي عام، يستفيد منه الإسلاميون قبل غيرهم[١٢]، خاصة في التغلب على المرض المزمن الذي يستنزف طاقة أي تجديد، وهو الانقسام التقليدي تجاه التراث والحداثة بين تيار متشبث بالتراث، وآخر حداثي، وثالث إصلاحي توافقي، وإن كان الاختلاف أمراً طبيعياً، وظاهرة مقبولة، لكن غير المقبول أن يتحوّل الموقف من مواجهة خارجية إلى صراع داخلي، ينفي الآخر ويحاول إقصاءه[١٣].

لقد قامت حركات الإصلاح الديني التي شهدها الفكر الإسلامي الحديث، بإثارة مسائل عدة لم تكن مطروحة من قبل على العقل الإسلامي، وفتحت بذلك إمكانيات حقيقية لإعادة النظر، وبذرت البذور لتجديد خطاب ديني حقيقي في المجتمع العربي، لكنّ هذه البذور كانت مشوبة بجوانب سلبية، فالتجديد ليس عملية مباشرة فورية وسريعة، تتم في لحظة، إنّما هي عملية تاريخية طويلة ومستمرة ومعقدة ينخرط فيها الجميع[١٤].

محاولات تجديد الخطاب الديني

كانت الحملة الفرنسية على مصر، عام ١٧٩٨، نقطة صدام محورية، استيقظ فيها العقل الجمعي التائه في دروب الفكر الكلاسيكي، على واقع مغاير، وعالم حديث يأخذ بأسباب المعرفة، فأحدث الاحتكاك ما أحدثه من وميض هائل، استثمر محمد علي وميضه، وهو يبني دولته الحديثة، ويتواصل الاحتكاك عبر إرسال البعثات للغرب، واستقدام العلماء من الخارج.

وفى عهد الخديوي إسماعيل، بدأ الشعور بضرورة حلّ إشكال الجمود الفكري، وعدم قدرة العقل الشرقي على مسايرة الواقع، ومحاولة التعامل مع تلك الأزمة تعاملاً أخذ صوراً عدة، وهو ما نبّه إلى وجود قضية يعيشها المسلمون الذين اختلفوا فيما بينهم في طرق حلّها، ما بين حلول سلفية وحلول حركية وأخرى فكرية، واختلفت الرؤى في نقطة البداية؛ فهناك من رأى أن تكون البداية من القاعدة

إلى القمة، ورأى آخر أن تكون من القمة إلى القاع، ورأى ثالث أن يبدأ بالموروث إلى المعاصر، ورابع بدأ من المعاصر إلى الموروث الديني، كلّ هذه التيارات بدأت بالاحتكاك مع الغرب، وكانت المدنية أهم العناصر التي ولدت هذه الحركة الفكرية، وكان السياق التاريخي مؤثراً، إضافة إلى التقدم الغربي والتطور التكنولوجي[١٨]، ومن هنا نخلص أنّ بداية الفكر الإسلامي المعاصر كانت في القرن التاسع عشر الميلادي، وتم ذلك على أيدي مصلحين كبار، أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده[١٩].

كان تيار جمال الدين الأفغاني، يرى البدء بالإصلاح من أعلى، ويعني به إصلاح القادة والسياسيين، والتيار الآخر الذي يتفق معه، لكنّه يختلف معه في الإجراءات؛ هو تيار الشيخ محمد عبده، حيث إنّ جمال الدين الأفغاني أثار القضية، في حين فكر فيها محمد عبده، حيث رأى أنّه لا بدّ من صناعة الأداة من الطلبة والعلماء والمفكرين الذين يشكلون النخبة، التي تستطيع أن تؤثّر في المجتمع[٢٠].

وظهرت مدرسة الإحياء والتجديد، التي تبنت رسالة محمد عبده، وبرزت آراء مصطفى عبد الرزاق، والشيخ عبد الكريم عيسى، وعبد المتعال الصعيدي؛ حيث كان كل هؤلاء امتداداً لمدرسة الإحياء والتجديد، وظهر أيضاً تيار من خريجي دار العلوم، كانوا يمثلون فصيلاً للتجديد الذي برز جلياً فيما بعد، في كتابات طه حسين، وعلي عبد الرازق، وأمين الخولي، وخلف الله محمد خلف الله، ونصر حامد أبو زيد، ومحمود إسماعيل، وغيرهم[٢١].

وبدأت الصراعات، وهو ما ظهر جلياً عندما صدر كتابين مهمّين أثارا جدلاً واسعاً هما: «في الشعر الجاهلي" لطه حسين، الذي دفع القوى المحافظة إلى المطالبة بمقاضاة صاحبه، ومنعه من التداول بسبب ما احتواه من آراء[٢٢].

أمّا الثاني؛ فهو "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق (صدر عام ١٩٢٥)، وقد تسبّب هذا الكتاب أيضاً في اندلاع معركة ضارية بين الخطاب التقليدي الغارق في طروحات الماضي، ونزعة التجديد من أجل تنوير العقول، وتحرير الفكر من القيود التي كبّلته طيلة عصور الانحطاط والتخلّف[٢٣].

هذا وقد ظهر كثير من مدارس التجديد، ويمكن تقسيم هذه المدارس إلى:

المدرسة السورية؛ ووضح تأثرها بالاتجاه الماركسي، ومنهاجياته فيما يتعلق بالتعامل مع التراث وتحليله.

المدرسة المغربية؛ ونجدها توقف شطراً كبيراً من نشاطها على تحليل بنية العقل العربي وتكوينه، ومن هذا المنظور استؤنفت دراسة العلوم اللغوية والدينية والفلسفية والعرفانية، تحت محاور ثلاثة

هي: **البيان** ويرادفه المعقول الديني، و**البرهان** ويرادفه المعقول العقلي، و**العرفان** ويرادفه اللامعقول العقلي، وفى هذه المدرسة انقسم العقل العربي إلى شطرين؛ عقل مشرقي لاهوتي، وفلسفته تقوم على علم الكلام، وعقل مغربي علمي، وفلسفته تقوم على الرياضيات والمنطق.

المدرسة المصرية؛ وهي مدرسة تعاملت مع التراث القديم كحقيقة موضوعية قابلة للتجديد مع مراعاة المحافظة على بقاء الأصول ثابتة، بمعنى أنّها تفرق في دائرة الموروث بين الثوابت والمتغيرات، والتراث في هذه المدرسة ليس هدفاً تتحرك في إطاره حياتنا المعاصرة، بقدر ما هو وسيلة خاضعة لإعادة التفسير من أجل تطوير الواقع وحلّ مشكلاته[٢٤].

الأزهر وتجديد الخطاب

باتت مسألة تجديد الخطاب الديني، تطرح نفسها وبقوة على المؤسسات الدينية، في ظلّ حالة الصراع والعنف المتزايد، وظهور الجماعات التكفيرية أمثال داعش وغيرها، وهو ما جعل الأزهر يسعى لاسترجاع مكانته، وإن كانت المؤسسة لم تزل بمنأى عن جوهر تجديد الخطاب الديني، في سياق حالة من الصراعات أيدلوجية الحادة، تتعلق بمفاهيم التراث الديني والحداثة والعولمة، وفي ظلّ ظهور خطابات إسلامية بديلة أدّت إلى تفتيت الخطاب الديني، وهو ما ساهم في إحداث حالة من الارتباك والغموض، وربما التضارب بين ما هو قائم وما هو معلن، ففي الوقت الذي يطالب فيه عدد من رجال الأزهر بتبني خطاب ديني جديد، يسعى إلى التوفيق بين الإسلام والحداثة، نجد البعض الآخر يتجنب فكرة التجديد ، وتدور رحى صراع لا تبدو نهايته بين التراث الديني والحداثة والعولمة، ويتضح فيه عجز مؤسسة الأزهر عن إدراك مفهوم تطور الخطاب الديني ومنطلقاته.

ويمكن القول؛ إنّ تجديد الخطاب الديني، يستدعي تغييراً جذرياً في مؤسستي الأزهر والأوقاف، فالمدرسة القديمة ما تزال متوجسة، ورافضة لمسارات الانطلاق، والقيام بتجديد حقيقي، وقد ظهر ذلك بصورة واضحة في قضية الإعلامي إسلام البحيري، الذي ظهر، رغم نزوعه نحو التجديد، افتقاده للمنهاجيات الحديثة، لكن الأزمة أظهرت أيضاً المستوى المتردي للمؤسسة الأزهرية، وقصور خريجيها معرفياً، وافتقادهم أدوات التجديد والتطوير المعرفي.

ويمكن القول: إنّ المؤسسة الأزهرية الكلاسيكية، وفي خضم أزمة سياسية طاحنة، وجدت نفسها مطالبة بتجديد خطابها الديني، باعتباره أحد محاور الحرب على الإرهاب، وقد كلفتها مؤسسة الرئاسة بمهمة ثقيلة[٢٥].

كانت دعوة مؤسسة الرئاسة هي المحرك الأساسي الذي دفع الأزهر إلى الإعلان عن قيامه باحتكار

ملف تجديد الخطاب، رغبة في الإمساك بزمام الأمر، وممارسة نوع من السلطة الدينية، فكانت الاستجابة (شكلاً) قبل مراجعة الأدوات والمضامين، وبرز اسم الدكتور أسامة الأزهري في هذا السياق، في حين واصلت الرئاسة ضغوطها بإرسال مندوب إلى مشيخة لاستعجال اتخاذ خطوات الجادة في ملف تجديد الخطاب الديني، وعبرت أيضاً عن استيائها من قيام محمد عبد السلام، المستشار الدستوري لشيخ الأزهر، من سيطرته على مجريات الأمور داخل المؤسسة الأزهرية، وقيامه بإقصاء عدد من علماء الأزهر، المشهود لهم بالإسهامات العديدة في مجال تجديد الخطاب الديني[٢٧].

وكانت أبرز الخطوات الفعالة في تجديد الخطاب الديني؛ الإعلان عن ضرورة تغيير المناهج التربوية والتعليمية بالأزهر، والبدء في ذلك نظراً لخلوها من أية معالجات معاصرة للقضايا التي برزت في الأعوام الأخيرة، واحتوائها على موضوعات لم يعد لها أي تطبيق في الحياة العلمية والعملية، ولذا تحتم على الأزهر إدخال بعض الموضوعات المعاصرة، والسعي إلى شرح المتون والعبارات التراثية، بأسلوب مبسَّط معاصر يناسب قدرات التلاميذ[٢٨].

من ناحية أخرى؛ فقد قامت وزارة الأوقاف المصرية بعقد مؤتمر شارك فيه عدد من الوزراء ورجال الدين والفكر تلبيه لدعوة الرئاسة، لتكشف أنّ جهود المؤسسات الدينية في تجديد الخطاب الديني وحدها، لا تكفي لمواجهة الفكر التكفيري الإرهاب، وشدّد العلماء على

إنّ تجديد الخطاب الديني وحده غير كاف لإصلاح وتطوير العقل، فالمسلمون يحتاجون إلى فهم صحيح يغيّر حياتهم وأفكارهم نحو الأفضل، وهذا لن يحدث إلا من خلال الدعوة للتفكير والعلم، وهو ما يتطلب خطاباً تربوياً تعليمياً وثقافياً وفكرياً وسياسياً، لأنّنا نعيش أزمة حقيقية وسط أوضاع سيئة، وحتى نستطيع أن نحدث نقلة نوعية في أيّ مجال من المجالات، فإنّه لا يمكن أن تحدث هذه النقلة بنفس الأدوات والأساليب القديمة؛ بل يجب التفكير في وسائل وأدوات حديثة ومبتكرة وغير تقليدية[٢٩].

ولم تكن الدعوة لتجديد الخطاب الديني بمصر فقط؛ بل أصبحت تلك القضية تناقش في العديد من الدوائر الثقافية، في العديد من الدول الإسلامية، نظراً إلى ما تمرّ به المنطقة؛ ففي المغرب، احتضنت المكتبة الوطنية في الرباط ندوة فكرية حول موضوع الخطاب الديني في المغرب، بين التقليد والتجديد، وقد ناقش المؤتمر عدداً من المحاور، أهمها:

رؤية المجتمع العربي للدين ودور المؤسسات الدينية في إنتاج خطاب ديني متجدد وعقلاني، ودور المثقف والباحث في إنتاج خطاب ديني، ينحو تجاه المعرفة العلمية، ففي خضم هذه التحولات التي تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية، يحضر الخطاب الديني في التحول التاريخي لهذه المجتمعات،

من ضمنها المغرب، ويؤثر فيها بدرجات متفاوتة، حسب طبيعة ذلك الخطاب الذي ينقسم إلى خطابات تشترك عدة عوامل سياسية واجتماعية ونفسية في بنائها؛ فهناك أربعة توجهات للخطاب الديني في المغرب، أولها: الخطاب الرسمي الذي تدافع عنه السلطة السياسية القائمة، وهو خطاب معترف به من المؤسسات الدينية المتضامنة معها.

وثانيها: الخطاب الحركي الذي تتبناه الأحزاب ذات المرجعية الدينية، التي ترى في الدين وسيلة للوصول إلى الحكم السياسي.

وثالثها: الخطاب الشعبي الذي يعمل على تجييش الجماهير وتحريك عواطفها وإثارة وجدانها، فيلقي بها في زمن غير زمانها، وفي عالم غير عالمها، فتلوذ بالحلم والمتخيل بعيداً عن مشكلاتها وواقعها الاجتماعي،

رابعها: خطاب الإسلام الليبرالي أو العلماني، وهو خطاب ذو مستويات متعددة تتراوح بين الحاد المتطرف التفكيكي الذي يهدر المعطى الإيماني، وبين العقلاني الموضوعي الذي يعتمد المعرفة العلمية الرصينة في التجديد، مع اعتبار الحاجات الروحية والإيمانية للإنسان، وهذا الخطاب بجميع مستوياته، هو الأقل رواجاً في الساحة العربية الإسلامية، إما لتصادمه الحاد مع جمود الفهم الديني، أو بسبب دورانه في الفلك الأكاديمي النخبوي، وقد اختار المنظمون فتح النقاش حول هذا الموضوع، على اعتبار أنّ الحاجة ماسة اليوم في المغرب لفتح نقاش حقيقي حول تجديد الخطاب الديني، بشكل يجعله مسايراً للتحولات السياسية والاجتماعية والقيمية التي يعرفها المجتمع المغربي، ويستلهم التجارب التنويرية للخطاب الديني في المشرق العربي مع الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، ومحمد الحجوي، وأبي شعيب الدكالي، وشيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، وعلال الفاسي، ومحمد بلحسن الوزاني، والمشاريع الفكرية لمحمد عابد الجابري، ومحمد أركون وغيرهم من الأسماء التنويرية التي قدمت تجديدات لفهم الخطاب الديني والعقل العربي، حتى يصبح الدين جزءاً من مشروع حداثة مغربية تستلهم منطلقاتها من واقعها التاريخي[٣٠].

أمّا مصر؛ فعلى النقيض، علماء الأزهر ليس لديهم خطط ممنهجة لتجديد الخطاب الديني ورافضين لأيّ رأى مخالف، وكان ذلك واضحاً من حوار الشيخ محمد البسطويسى، نقيب الدعاة الذى أكّد أنّ الأزهر والأوقاف لم يتحركا خطوة واحدة لتجديد الخطاب الديني، في حين أنّه هو أيضاً لم تكن لدية القدرة على تقديم أية حلول، فنراه يذكر دورات تدريبية تعقد، يحاضرها كوادر دينية وسطية لتربية الأئمة، وأخذ في التحدث عن أن يكون الإمام حسن المظهر، ثم أخذ في مهاجمة من يحاول الاجتهاد

أمثال إسلام بحيرى[٣١]، فالأزهر كمؤسسة إسلامية يرفض فكرة التجديد، ويتصرف بردة الفعل، ويظهر غياب إستراتيجية في التعاطي مع القضايا الكبيرة، ومنها الفراغ الدعوي، حين أنّ هناك تياراً محافظاً في الأزهر يأتي على رأسه الشمس الإمبابي، وكان مخالفاً لفكرة التجديد محافظاً على التراث، هذه المدرسة المحافظة لم تخرج من التفسير القرآني إلى الحياة المعاشة، وعندما جاء مفسّر يسعى إلى أن يجعل هذا متصلاً بالحياة، جاء من دار العلوم، لا من الأزهر، وهو سيد قطب، ولم يعتمد كتابه «الظلال» على التفسير الأكاديمي للأزهر[٣٢].

إلّا أنّه، من ناحية أخرى، نجد أنّ الدكتور أسامة الأزهري يدعو إلى ضرورة إعمال العقل والإبداع العلمي رافضاً المنع والقمع، وعدم تقديس الأشخاص والمناهج وكتب العلماء، وعدم تدنيسها في الوقت نفسه، أما إسلام بحيرى الذي وصف الأطروحات الفكرية بأنها صندوق قمامة وورق، أو عفن، وأنّها سبب التخلف، فأطروحة إسلام بحيرى؛ هي مشروع مستنسخ من المستشرقين، وما من فكرة قالها إلا وقد ذكرها وأثارها المستشرقون من قبل؛ فإسلام بحيرى ينادي بتحرير الإسلام من جهود العلماء، منذ القرن الثاني الهجري، وهو نفس ما نادى به سيد قطب في كتاب «التصوير الفني للقرآن»، وفى كتابه «الظلال»، نجد أنّه ألقى تراث العلماء بأكمله، وسمّاه تراثاً جاهلياً، والخطأ الجوهري في منهجية إسلام بحيرى، هو تصوره أنّ الدين ليس علماً[٣٣].

هنا يتضح لنا بصورة واضحة مدى سطحية شيوخ الأزهر والدعاة؛ فبدلاً من التحدث عن منهج علمي، وطرق إصلاح وتجديد المؤسسة الدينية والخطاب الديني، أخذ في التحدث عن أمور سطحية مثل المظهر، وأخذ كذلك في مهاجمة من يحاول الاجتهاد، مثل إسلام بحيرى، رغم أنّه افتقد المنهج العلمي، إلّا أنّه حاول، وبذلك نجده قصر فكرة التجديد على شيوخ الأزهر فقط، رافضاً فكرة أن يدخل تلك الحركة علماء من خارج المؤسسة الدينية، متناسياً أنّ رافضي التجديد كانوا من الأزهر نفسه، وأنّ من حاول التجديد من داخل المؤسسة الأزهرية، صودرت أفكاره لأنّها تدعو للتجديد، ومن هنا فمن الضروري تكاتف جميع أطياف المجتمع، من أجل تجديد الخطاب الديني، والوقوف في وجه أصحاب الفكر المتحجر في الأزهر؛ فالأزهر كغيره من المؤسسات يحتاج إلى ثورة على القديم البالي، ومواجهة أصحاب الفكر المتحجر من علماء الأزهر، رافضي فكرة التجديد، خاصة أنّ الأمة العربية والإسلامية في حاجة قصوى إلى تجديد الخطاب الديني، من أجل القضاء على الأفكار والحركات الهدامة والمتطرفة، ومن أجل أن نستطيع مسايرة ركب الحضارة، فلا يمكن أن نظلّ قابعين في ذيل الأمم.

ومن هنا، يمكننا أن نعدّ الأزهر كله تياراً واحداً؛ فالتيار الأزهري هو التيار المحافظ، الذي أسسه

الشمس الإمبابي، أمّا التيار المتطور، ومؤسسه محمد عبده، فله أتباع، لكنّ أغلبهم من خارج المؤسسة الأزهرية.

كما أكّد الرئيس عبد الفتاح السيسي ضرورة تجديد الخطاب الديني، مؤكداً أنّ هناك بعض المفاهيم التي جاءت في الدين الإسلامي، يجب مراعاتها حتى لا نجبر غير المسلمين على قبولها، وأنّ فكرة الإلحاد التي أصابت بعض الشباب في الفترة الأخيرة، قد جاءت بسبب الوضع الحالي الذى تمرّ به الأمة الإسلامية، كما شدّد الرئيس على ضرورة تجديد الخطاب الديني، في إطار الدولة، ومن خلال المتخصصين، خاصة من مؤسسة الأزهر، وعدم المساس بثوابت العقيدة، وأن عملية التجديد ستأخذ وقتاً طويلاً، كما أوضح أنّ هناك عوامل أدّت إلى إنتاج الإرهاب والتطرف، من بينها الجهل والفقر والخطاب الديني السيئ، موضحاً ضرورة إتاحة الفرصة لشباب وباحثي مصر، للدراسة في الجامعات الغربية، للانفتاح على الآخر، وتفهّم العقليات المغايرة.

ومن ناحية أخرى؛ فهناك ترابط قوى بين تجديد الخطاب الديني ومواثيق حقوق الإنسان، فتجديد الخطاب الديني يجب أن يؤسَّس على احترام الآخر، واحترام المرأة، والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وكافة العقائد والشرائع، دون تمييز أو تخوين، والسعي إلى تغيير البيئة الخاصة بالخطاب الديني، التي ساهمت في إخراج خطاب دبني طائفي، لتكوين بيئة أكثر حرية وتسامح وعدالة، ومن أجل دعم وبناء الجسور بين أبناء الوطن، يجب الاهتمام بالخطاب الديني غير الرسمي، ووجود تعليم مدني لا يفاضل بين العقائد، ويركز على قيم المواطنة ونبذ الفرقة بين المسلمين وغيرهم.

والسؤال المهمّ هنا: هل يستطيع الإسلام قبول المفاهيم الثورية لحقوق الإنسان؟

وهنا تكون الإجابة: نعم، فالإسلام ومصادر التشريع تسمى المنطق الصوري، فأسس تجديد الخطاب الديني يجب أن تعتمد على العقل والحكمة والمصلحة، ولا بدّ من الاعتراف بوجود نصوص قرآنية تؤكد احترام الإنسان، ولا يوجد تعارض بين الإسلام والإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ فالعالم الإسلامي يوجد به من يحاول تسخير الدين لمصالحه، ولذا فعلينا أن نقوم بحماية الدين وحقوق الإنسان من هؤلاء، أمثال داعش والإخوان المسلمين وغيرهم، ولتجديد الخطاب الديني يجب أن يكون ذلك في الأصول والفروع في الدين.

وكان لزاماً علينا طرح فكر ابن رشد، وتعريفه للتأويل؛ فهو (إخراج اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخلّ ذلك بعادة لسان العرب في التجوز بتسمية الشيء بشبيهه، أو سببه، أو لاحقه، أو مقاربة غير ذلك)، وابن رشد يشترط للتأويل ثلاثة شروط:

١ – التأويل الخاص بالفيلسوف، وهو ليس من شأن المتكلمين أو أهل الظاهر.

٢ – أنّ الكتاب الذي يخاطب طبقات الناس، يجب أن يستخدم أشكال القياس المختلفة؛ من البرهاني وحتى الجدلي، من أجل مراعاة التفاوت في الفهم والعلم بين الناس.

٣- أن يوظَّف التأويل بشكل صحيح أو مخلّ.

ويرى ابن رشد، أنّ الناس في الشريعة ثلاثة أصناف: صنف ليس من أهل التأويل أصلاً، وهم الخطابيون، وصنف من أهل التأويل الجدلي، وهم الجدليون، والصنف الثالث هو أهل التأويل اليقيني، وهم البرهانيون، ويوضح ابن رشد أنّ نشر التأويلات المجازية، والفاسدة منها على وجه التحديد، هي السبب في نشأة الفرق الإسلامية، وتكفير بعضها للآخر، فالمعتزلة والأشاعرة أولوا الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث، وجاهروا بها للجمهور، فأوقعوا الناس في تشتّت، ومزقوا الشرع.

إنّ الأزهر الشريف، ومنذ إنشائه على يد الفاطميين، يعمل على خدمة النظام السياسي فقط، ولم يكن ليقدم الجديد في الخطاب الديني، فقد قام الفاطميين بتأسيس الأزهر، ليس كمسجد للعبادة، بل أيضاً كمركز لنشر الدعوة الشيعية، ومحاربة المذهب السنّي في باقي أنحاء العالم العربي.

إلّا أنّ هذا الدور انتهى بقيام الحكم الأيوبي، وإعلان صلاح الدين الأيوبي، انتهاء وسقوط الفاطميين، وظلّ دور الأزهر، خلال تلك الفترة، وما تلاها مكاناً للعبادة، ولم يقدم أيّ جديد في الفكر الإسلامي، ومع مجيء الحملة الفرنسية على مصر، حدثت هنا الصدمة الحضارية الأولى، واستطاع نابليون استقطاب عدد كبير من أصحاب العمائم من علماء ومشايخ الأزهر، للعمل في الدواوين والعمل السياسي، واستخدامهم كأداة طيعة في يده، والابتعاد عن الفكر والتجديد، وظهر هذا جلياً خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية، فلم يقم العلماء والمشايخ بالدور المنوط لهم؛ بل إنّ من تزعم الثورتين هما طلاب وشباب الأزهر، وعلى مدار التاريخ والأزهر كمؤسسة تعليمية كبرى، لم يسعَ لتقديم التجديد في الفكر والخطاب الديني، حتى جاءت دعوة الرئيس السيسي بضرورة التجديد؛ فالأزهر يحتاج إلى ثورة على القديم البالي، والقيود المفروضة من قبل بعض العلماء والمشايخ الرافضين للتجديد.

وعن التساؤل عن النظام الأوروبي والإسلامي في التجديد؛ فقد مرّت أوروبا بعملية التجديد، والانقلاب على القديم في أواخر العصور الوسطى، وقامت مجموعة من الحروب الدينية في العديد من الدول، أدّت في النهاية إلى تغيير جذري في جميع نواحي الحياة في أوروبا، ومن الضروري حدوث ذلك التغيير أيضاً في العالم الإسلامي، مع الفرق في أنّ الحروب الدينية في أوروبا لن تحدث في العالم الإسلامي، بسبب اختلاف الأنظمة؛ فمعظم الدول العربية بها بعض حالات الاستقرار، وأنظمة حكم موحدة، عكس أوروبا التي ساد بها النظام الإقطاعي، وتحكّم الكنيسة في كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش

(١) القاموس المحيط ١/ ٢٨١.

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٦٨٩.

(٣) سماحة الشيخ عبد الأمير قبلان: مفاهيم التجديد والاجتهاد والإبداع، التجديد في الفكر الإسلامي: أبحاث ووقائع المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ٣١ مايو – ٣ يونيو ٢٠٠١، القاهرة ٢٠٠١، وزارة الأوقاف، ص ١٢٦.

(٤) محمد لبيب: الدعوة السلفية ٢٠- ٩-٢٠١١.

(٥) سيف الدين عبد الفتاح: مفاهيم التجديد، جريدة الأهرام ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٧، ١٣٢، العدد ٤٤١٩٨.

(٦) عبد الأمير قبلان، ص ١٢٧.

(٧) إبراهيم صالح الحسيني: ضرورة التجديد الحدود والضوابط: التجديد في الفكر الإسلامي، ص ١٩٠.

(٨) خالد عبد الله الشعيب: ضرورة التجديد وضوابطه في الفكر الإسلامي، ص ٩٩.

(٩) جعفر عبد السلام: الحفاظ على الهوية الإسلامية في إطار التجديد، ص ٧٦٤.

(١٠) خالد عبد الله الشعيب: ص ٩٩.

(١١) صوفي أبو طالب: الوسطية أساس التشريع الإسلامي، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٣-٩٤، السنة الرابعة والعشرون، القاهرة ،١٩٩٩، ص ٢٣٩.

(١٢) جلال أمين: التنوير الزائف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٩٩.

(١٣) أحمد الطيب: ضرورة التجديد، مؤتمر التجديد في الفكر الإسلامي، ص ١٦١.

(١٤) برهان غليون: الإسلام والتحدي الحضاري، ندوة الدين والتدافع الحضاري، رسالة الجهاد، مالطا، ١٩٨٨، ص ٤٩٣.

(١٥) بو عبد الله علام الله: دور العقل في الخطاب الديني، التجديد في الفكر الإسلامي، ص ٨٣٩.

(١٦) حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، المئوية الأولى ١٨٩٧-١٩٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٩٧.

(١٧) عبد الوهاب المسيري: حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين، المسلم المعاصر، العدد ٩٣-٩٤، ص ص ١٧٥-١٧٦.

(١٨) علي جمعة: حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين، مجلة المسلم المعاصر، ص ١٨٧.

(١٩) محمد شحرور: دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، الأهالي للنشر، دمشق، ص ١٥.

(٢٠) محمد عمارة: حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين، مجلة المسلم المعاصر، ص ٣٣٨.

(٢١) حسن حنفي: ص ١٩٧.

(٢٢) علي جمعة: ص ص ١٩٠-١٩١.

(٢٣) محمد نوار: صحيفة العرب، بتاريخ ١-٤-٢٠١٥، العدد ٩٨٧٣، ص ١٣.

(٢٤) مجلة الأزهر ٢٤ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٥، مقال للدكتور أحمد الطيب: التجديد والتراث مناقشات وردود.

(٢٥) اليوم السابع ١ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٥.

(٢٦) محمد نوار، صحيفة العرب، ص ١٣.

(٢٧) المركز العربي للبحوث والدراسات: الإعلام وتجديد الخطاب الديني، ١٤ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٥.

(٢٨) بهاء أبو شقة: الإعلام وتجديد الخطاب الديني، بوابة الوفد، ١٣ من كانون الثاني (يناير) ٢٠١٥.

(٢٩) جريدة المصريون: عباس شومان، الأحد ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٤.

(٣٠) جريدة اللواء العدد ١٤٣٨٠، السنة ٥٢، ٢ حزيران (يونيو) ٢٠١٥.

(٣١) جريدة الصباح المغرب.

(٣٢) محمد نوار، صحيفة العرب، ص ١٣.

(٣٣) جريدة أخبار اليوم، ٢٣ مايو٢٠١٥، ص ١٥، العدد ٣٦٨٧.

(٣٤) مجلة نصف الدنيا، ٨ نيسان (أبريل)، العدد ٢٩١٥.

hafryatnews

hafryat news

hafryatnews

صحيفة حفريّات تصدر عن مركز دال للأبحاث والإنتاج الإعلامي

35 شارع إسراء المهندسين ـ ميدان لبنان
الجيزة ـ جمهوريّة مصر العربيّة
www.hafryat.com

All rights reserved © 2017
www.hafryat.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
www.hafryat.com